«في سورة اللّهب دراسة بلاغية»

د. أحمد فتحي رمضان
المدرس في قسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة الموصل

توطئة

يتناول هذا البحث سورة اللّهب (*)، وهي سورة مكية وعدد آيها خمس[1]، وروي أنّ نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة. وسبب نزولها أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وأَنذِرْ عشيرتَكَ الأقربين﴾[2] دعا ﷺ قومه ولا سيّما الأقربين فأنذرهم وقال لهم: ﴿إني نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد﴾[3] فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دَعَوْتَنا؟ وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت هذه السورة. فلمّا سمعت امرأتُه مانزل في زوجها وفيها من القرآن أتَتْ رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر – رضي الله تعالى عنه – وفي يدها فهر (*) من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ اللّهُ بصرها عن رسول اللّه فلم ترَ إلاّ أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر إنّ صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، واللّه لو وجدتُه لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لقائلة:

مذمّماً عَصَيْنا، وأمره أبَيْنا، ودينُه قلَيْنا. ثم انصرفت فقال أبو بكر: يارسول الله أما تراها رأتك؟ قال: مارأتني، لقد أخذ اللّهُ بصرها مني، وكانت قريش تسمّي رسول اللّه مذمّما ثم يسبونه أي ذو ذمّة وعهد صادق[4].

وروي عن طارق المحاربي قال بَيْنا أنا بسوق ذي المجاز إذ أنا بشاب حديث السن يقول: أيها الناس: «قولوا لا اله إلاّ اللّه تفلحوا» وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمىٰ ساقيه وعرقوبيه – مؤخر القدم – يقول: يا أيها الناس إنّه كذاب فلا تصدّقوه فقلت: من هذا؟ فقالوا هو محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمّهُ (أبو لهب)، يزعم أنه كذّاب»[5].

وروي عن امرأة أبي لهب «أم جميل» بأنها «كانت تحمل حزمة من الشوك والحَسَك فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ»[6] لايذائه، فهي كانت شديدة العداوة والايذاء – كزوجها – للرسول ﷺ.

عمدنا في هذه التوطئة إلى سرد هذه الروايات في أسباب نزول سورة اللهب لما لها من

(*) سميت هذه السورة عند جمع من المفسرين بـ (سورة أبي لهب) على تقدير: سورة ذكر أبي لهب. وعنونها أبو حيان في تفسيره بـ (سورة اللهب). وسميت أيضاً بـ (سورة تبّت)، وسمّيت في بعض المصاحف وبعض التفاسير بـ (سورة المسد). وهي سورة مكية بالاتفاق.

(*) فهر: قطعة من حجارة.

أهمية قصوى في إضاءة أسلوب السورة الذي بُنيت عليه ، كما أنّها تجلّي ألواناً من أساليب الأذى التي كان يلقاها الرسول ﷺ من أكابر أعدائه الذين قادوا حرباً نفسية ومادية لا هوادة فيها ضد الرسول ﷺ خاصة والمسلمين عامة .

لذلك فإن هذه السورة من الأمثلة البارزة التي تصوِّر هذا العداء من جهة ، ومن جهة أخرى فإن السورة تمثل حرباً نفسية استخدمها القرآن ضد أعدائه – ومنهم أبو لهب وزوجه – موضوع السورة – حرباً تحطمهم روحاً ومعنى قبل أن تحطمهم مادة وصورة . فالسورة تستهدف – فيما تستهدف – القضاء عليها والسخرية منها ، وهذا هدف من أهداف السورة بله القرآن الكريم وتخطيطه ، لتكون سلاحاً في وجه أعداء الاسلام ، وليقاوم بها المسلمون الحرب النفسية التي يشنّها الأعداء عليهم ، وما السخرية إلاّ لون من ألوان الحرب النفسية[٧] .

والسورة تهاجم أبا لهب مهاجمة عنيفة تحطّمُ سيادته ومجده وقوته ، فهذا الشخص القوي المتسلّط ذو المال والبنين الذي يملأ قلوب أتباعه إعجاباً وإكباراً تمسخه السورة وتحطّمه ، وهذه زوجه كما تصورها السورة في أخزى صورة من العذاب – في الدنيا قبل الآخرة – لها وقعها وتأثيرها البالغ في مجتمع كالمجتمع العربي ، إذ إن أيّ صورة من صور العذاب والهوان أخفّ وأيسر في وقعها من هذه الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية لها ، فتصويرها مكبّلة بالأغلال أو معذَّبة في جهنم ، أو أيّ شيء من ذلك ، لا يبلغ منها ولا يحطّ من منزلتها في المجتمع ما يبلغه التصوير القرآني هذا ، وهو يتناول أمّ جميل التي يملؤها الغرور ، ويسيطر عليها الشعور بالعزة التي لا تُمس ، والقوة التي لا تُقهر ، وبذلك يقدّم القرآن بهذه الحرب النفسية حوافز معنوية للمسلمين وهم يدافعون عن الاسلام متحمّلين ضروباً شتىٰ من المشقّة والبلاء والايذاء[٨] .

وأسباب النزول – أيضاً – تضيءُ لنا ظواهر بلاغية وأسلوبية تشكّلت في نسيج السورة الكريمة ، فالله – سبحانه – يدافع عن نبيّه بمثل اللفظ الذي شتمه به أبو لهب جزاء وفاقا . وكذلك جعلت السورة لامرأته عذاباً ووعيداً مُقْتَبساً لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا ، فأُنذِرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد بها على زوجها ، وذلك خزي لها ولزوجها إذ جعلت السورة شدة عذابها على يديها[٩] .

ونحن إذ نحلّل السورة بلاغياً ، فإننا ننظر إلى الظواهر البلاغية في نسيج السورة بوصفها لوحة كاملة متكاملة ، ننظر إليها نظرة تحليلية شاملة تتداخل فيها الظواهر البلاغية في بنية السورة ، وهي تعمل جميعاً على ايصال الأفكار والمعاني إلى المتلقي بحيوية وقوة تأثير.

الظواهر البلاغية في أيّ نص أدبي سيّا النص القرآني ما هي إلاّ دلائل استكشاف لمناحي الفن والجمال الكامن في بنيته ، ما هي – في نظر البحث – إلاّ مفاتيح للدخول إلى عالم السورة الواسع العميق على الرغم من حجم مساحة السورة التي لا تتجاوز خمس آيات

تُعالج فيه موضوعاً واضح السمات والمعالم ، مفاتيح تبقىٰ معها السورة تحمل إعجازها المستمر مع الزمان والمكان ، يستكشف فيها الدارسون كل جديد.

تحليل السورة بلاغياً

سنعمد قبل تحليل السورة بلاغياً إلى ايراد نصها الكريم أولاً ، وتحديد الظواهر البلاغية فيه ثانياً ، ومن ثم توزيعها إلى علومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) التي تشكّل لحمة البلاغة وسُداها.

«بسم اللّه الرحمن الرحيم»

﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ. ماأَغْنَىٰ عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ ناراً ذاتَ لَهَبٍ. وَامرأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ. في جيدها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ.﴾

(أ) علم المعاني

ورد في السورة منه :

١. خبر غرضه الدعاء في (تبّت يدا أبي لهب).
٢. خبر غرضه الدعاء أيضاً في (وتبّ) وهو معطوف على الدعاء الأول تأكيداً له.
٣. الفصل والوصل والنفي والاستفهام والايجاز والاطناب في (ماأغنى عنه ماله وما كسب).
٤. التوكيد والتنكير في (سيصلىٰ ناراً ذات لهب).
٥. الوصل والايجاز والمبالغة في (وامرأته حمّالة الحطب).
٦. التقديم والتأخير في (في جيدها حبلٌ من مسد).

(ب) علم البيان

ورد في السورة منه :

١. المجاز المرسل في (تبّت يدا أبي لهب).
٢. الكنية في (أبي لهب).
٣. الكناية في (وامرأته حمّالة الحطب).
٤. الكناية أيضاً في (في جيدها حبلٌ من مسد).

(ج) علم البديع

ورد في السورة منه :

١ ـ حسن الابتداء في (تبّت يدا أبي لهب وتبّ).

٢ ـ الرجوع في (وتبّ).

٣ ـ الجناس التام بين (أبي لهب) و (ناراً ذات لهب).

٤ ـ الفواصل المتماثلة في (تبّ ، كسب ، لهب ، الحطب).

٥ ـ الفاصلة المنفردة في (مسد).

وقد تواشجت هذه الظواهر البلاغية جميعاً في نسيج السورة على نحو متناغم في توصيل مقاصد السورة وأهدافها إلى المتلقي بطريقة موحية مؤثرة.

تُستهلُّ السورة بابتداء غاية في الحسن لأنّه يناسبُ المقصود مناسبة تامة «وأحسنُ الابتداءات ما ناسب المقصود ويُسمّى براعة الاستهلال»[١٠].

﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ﴾

إذ إنّ افتتاح السورة بالتباب مُشعر بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد، فهو براعة استهلال[١١] يؤذن بالذم والزجر لأبي لهب على قوله للرسول ﷺ «تباً لك ألهذا جمعتنا»؟ ووعيده على ذلك. وحسن هذا الاستهلال حقّق وظيفتين مهمتين:

الأولى: جَلْب انتباه القارىء أو السامع وشدّه إلى موضوع السورة.

والثانية: التلميح له عمّا تحتويه السورة من معان.

قال صاحب جواهر البلاغة: «وحسن الابتداء أو براعة المطلع هو أن يُجعل أول الكلام مناسباً للمقام بحيث يجذب السامع إلى الاصغاء بكليته، لأنه أول مايقرع السمع، وبه يُعرف ممّا عنده»[١٢].

فضلاً عن أنّ هذا الابتداء له موقع يرتبط به مع بقية عناصر نص السورة برابط عضوي، أي أنّ آيات السورة الكريمة تنبثق عنه وترتبط به، وأنّ معانيه تمتد داخل السورة امتداداً كخيوط السّدى تولّد صوراً مرتبطة به، وذلك لشدة الالتئام والانسجام[١٣]. وبذلك يتحوّل هذا الابتداء داخل نص السورة إلى علامة تلازم دلالتها الايحاء بالمعنىٰ العام، لأنّ بنية الابتداء تتردّد داخل السورة على شكل آيات متشابهة أسلوبياً تعمّق المعنى الكبير الذي يتمثل بالهلاك والعذاب لأبي لهب وزوجه فضلاً عن السخرية اللاذعة بها التي أكّدتها السورة على نحو قوي ملحوظ.

يقول أحد النقاد المعاصرين في وصف أفضل أنواع الاستهلالات: «الاستهلال مبتدأ يستوجب خبراً، وإذا أُلغي الخبر لايُصبح للكلام مبتدأ، والخبر الجيد هو الذي يصاغ من

فاعلية المبتدأ وأنّ المبتدأ الجيد لا يُصبح مبتدأً إلاّ بخبره هو. ويعطينا هذا المبتدأ خاصية انتشار الاستهلال في بنية النص بما يشبه الماء في الكلمات. وما التكرار أو التردّد الأسلوبي الذي نعنيه إلاّ الخبر للجملة الاستهلالية»[١٤]. فالملاحظ على ابتداء السورة أنه يربط بين الصور والأفكار التي عالجتها السورة فضلاً عن أنه استهلال موجز مكثف، فهو ملمح اعجازي من اعجازات السورة الكريمة، إذ إن الايجاز فيه حقّق غايته التعبيرية بأقلّ عبارة وأوجزها.

والتباب هو الخسران والهلاك[١٥]، ولكنه في نظم الآية يبرز خسراناً وهلاكاً من نوع خاص مؤكّد، إذ تتداخل في هذا النظم القرآني ظواهر بلاغية متعددة تحقّق هجوماً عنيفاً على أبي لهب يجرّده من قواه المادية والمعنوية مع السخرية منه والتهكم به. فالدعاء المتحقّق بجملة (تبّت) – والدعاء من الله قضاء نافذ – عُطف عليه الدعاء الثاني (وتبّ) تأكيداً للدعاء الأول «فأُعيد الدعاءُ على جميعه إغلاظاً له في الشتم والتقريع»[١٦]، وهذا الإغلاظ في الهلاك والشتم والتقريع الذي أدّاهُ وصل الدعاء بالدعاء يوحي من طرف خفي بشدة ايذاء أبي لهب للرسول ﷺ، وتجلّي آية الاستهلال هذا الايذاء من خلال المجاز المرسل (يدا أبي لهب) إذ أُسند التباب إلى يديه لأنها الآلة في الرمي بالحجارة – كما يطلعنا سبب النزول – فالمجاز المرسل الذي أُطلق فيه الجزء (يدا) وأُريد به الكل من شأنه أن يُبرِّز عداءً حسياً غليظاً تزاوله يدا أبي لهب تجاه الرسول ﷺ، ومن ثم يتجلّى هجومُ القرآن عليه بعنف إذ يجعل يديه التي تزاول هذا العمل الشرير هالكتين بالقطع، وهو هجوم مادي غليظ، ثم يتبعه بهجوم معنوي على سبيل التهكم منه والسخرية به، وذلك بكنيته التي يعتزّ بها «أبي لهب» في قومه، والكنية عند العرب تستعمل للتعظيم والتكريم، أمّا الكنية هنا في سياق الآية فهي تنتظم على الضدّ من ذلك على سبيل التهكم والعكس في الكلام، وقد قيل في كنية (أبي لهب) أقوال منها:

١. كُنيّ بذلك (لحسنه وإشراق وجهه).
٢. إنّه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف.
٣. إنّه كان اسمه (عبدالعزّى) فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك.
٤. إنّه لما كان من أهل النار، ومآله إلى النار، والنار ذات لهب، وافقت حاله كنيته.[١٧]

والقول الرابع (وافقت حاله كنيته) يتأتّى به التوجيه بكونه صائراً إلى النار، وذلك كناية عن كونه جهنّمياً، لأن اللهب ألسنة النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان، فكانت كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاقه لهب جهنم فصار هذا التوجيه كناية عن كونه جهنّمياً[١٨]، ويقوّي هذا التوجيه ويؤكّده الجناس التام بين (أبي لهب) و(سيصلى ناراً ذات لهب) فهي مجانسة موحية بالتضايف بين المتجانسين، وهو لون من ألوان التناسق الفني في السورة.

(وتبّ) رجوع وهو من المحسنات المعنوية ، والرجوع هو: العَوْدُ على الكلام السابق لنكتة[١٩] بلاغية تتمثل هنا في طلب الازدياد في الذّم بأبي لهب وتوبيخه ، وأنه آيس من النجاة من هذا التباب وتحقيق حصول ما دُعي عليه ، لذلك فصل بين الآيتين الأولى والثانية «ما أغنى عنه ماله وما كسب» لشبه كمال الاتصال[٢٠] بينهما ، فكأنّ الآية الثانية «ما أغنى ...» جاءت جواباً عن سؤال أثارته الآية الأولى فبينهما قوة رابطة معنوية فوجب الفصل بينهما . والتعبير بالفعل الماضي «ما أغنىٰ» لتحقيق وقوع عدم الإغناء[٢١] وتوكيده ، فهو قد تمّ وحصل ذلك الهلاك في الدنيا قبل الآخرة ، و(ما) نافية للإغناء ، ويجوز أن تكون استفهامية يراد منها المعنىٰ المجازي المتمثل في الانكار والتوبيخ ، فهو استفهام انكاري توبيخي ، والاستفهام يكشف فضلاً عن الانكار والتوبيخ عمّا يمتلكه أبو لهب من المتلكات التي يتفاخر بها ويتبارىٰ على وجه من التعظيم ، تعظيم ماكان فيه من نعمة ومكانة في قومه ، لكنها لم تغنه شيئاً ولن تغنيه «ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب؟» ، ويؤكد هذا ويجلّيه أيضاً حذف المفعول به في قوله « وما كسب» إذ أفاد هذا الايجاز الاطلاق والتنويع دون تحديد ماكسبه ، وغلب عند العرب اطلاق (المال) على الانعام والنخيل ، فيكون قوله «وما كسب» ما يملكه من غير النّعم من نقود وولد وجاه وسيادة[٢٢] ، إذ إنّ الوصل يستوجب التغاير في المعنى «ماله وما كسب» ، ويمكن توجيه الوصل على سبيل الاطناب بطريق عطف الخاص «وما كسب» على العام «ماله» وذلك لابراز (الخاص) والعناية به من جميع ماله . وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال : «إنْ كان مايقول ابن أخي حقّاً فأنا أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي ، فأنزل الله «ما أغنى عنه ماله وما كسب» وقال ابن عباس «وما كسب» هو ولده فإنّ الولد من كسب أبيه»[٢٣] ، فالآية شاملة في معناها لكل ماكسبه هو بنفسه ومنه ولده وكل ما ورثه كذلك ، ولكنه لا يغني عنه شيئاً ولا يدفع عنه عذاب النار الذي أوعده الله به على وجه من التهديد والتوكيد :

﴿سيصلىٰ ناراً ذات لهب﴾

ولا تخفىٰ وظيفة التنكير (ناراً) في تركيب الآية من تفخيم شأن هذه النار التي سيصلاها أبو لهب على وجه من التوكيد والتهديد كما أفادت أداة التوكيد (السين) في «سيصلىٰ» ، ووصف هذه النار المنكّرة بـ (ذات لهب) هو زيادة لتقرير المناسبة بين كنيته وبين عذابه ، إذ هو أبو لهب والنار ذات لهب ، فضلاً عن وصف النار باللهب زيادة كشف لحقيقة النار توكيدا[٢٤] وإبرازاً لها ، وهو لايصلاها لوحده ، فهذه امرأته حمّالة الحطب تصلاها معه ، بل هي تضرم هذه النار وتغذيها بالوقود :

﴿وامرأته حمّالة الحطب﴾

وامرأة أبي لهب التي ستصلىٰ النار معه هي أم جميل[٢٥] ، وكانت تحمل حطب

العضاه والحسك لتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته[٢٦]. وصيغة المبالغة فعّالة (حمّالة) توحي بكثرة هذا الفعل الدال على كثرة ايذائها لرسول الله ﷺ، فجُعل وعيدها وعذابها مقتبساً لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا كما جُعل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته، فها هي ذي تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها فضلاً عنها، وبذلك يجلّي التعبير القرآني السخرية منها، فضلاً عن عذاب الخزي لها ولزوجها، إذ جعل شدة عذابها على يديها.

وتتجلّى السخرية اللاذعة من أمّ جميل في التعبير الموجز المصوِّر لمعناه «حمّالة الحطب» الذي يمكن حمله على الكناية[٢٧]، فيفهم أولاً على المعنى الحقيقي القريب، ومن ثم فهمه على المعنى الكنائي البعيد، وذلك استناداً إلى طبيعة الفن الكنائي الذي يجوز فيه إرادة المعنى الحقيقي، فضلاً عن إرادة لازم معناه مجازاً.

والبادي من هذا التعبير إرادة المعنيين القريب والمجازي البعيد لاتصال أحدهما بالآخر اتّصالاً يكمّل الصورة بمعانيها وايحاءاتها التي يهدف القرآنُ تأديتها في إخراج وصف أمّ جميل التي كانت شديدة العداوة والايذاء للرسول ﷺ.

والمعنى القريب قد أشرنا إليه آنفاً، أمّا المعنى البعيد الذي تشير إليه الكناية «حمّالة الحطب» فهو (النميمة)، ويورد ابن قتيبة هذا المعنى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – بقوله: «قال ابن عباس الحطب: النميمة وكانت تنمُّ وتوَرّشُ بين الناس. ومن هذا قيل: (فلانٌ يحطب عليّ) إذا أغرىٰ به شبّهوا النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنها يقعان بالنميمة، كما تلتهب النار بالحطب»[٢٨].

وقال الزمخشري: «وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويقال للمشّاء بالنمائم المفسد بين الناس، يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم النائرة ويورّث الشر»[٢٩].

وفي كلا المعنيين القريب والمكنى عنه البعيد الذي توحي به الصورة الكنائية «حمّالة الحطب» تتجلىٰ سخرية القرآن من أم جميل بجلاء، لأن صورة حمل الحطب على الحقيقة فيها مهانة وسخرية، فالذي يجمع الحطب ويحمله عند العرب – عادة – إمّا العبيد الأرقّاء أو الفقراء المعدمون، فجامعو الحطب ليسوا من السادة بل ليسوا حتى من أوساط الناس، وإنّما هم في درجة من صِغَر الشأن قد يضرب بها المثل في هذا الشأن الهّين الصغير، لذلك فإنّ «سخرية القرآن تختار هذه الصورة من الهوان الاجتماعي في نظرهم، لا لتشوّه بها رجلاً، فالعمل الحلال أياً كان نوعه في الاسلام شرف ونوع من الجهاد، وإنما اختارت سخرية القرآن هذه الصورة لتكسر بها شموخ أنف امرأة متعالية طاغية، تحتمي بمجد الآباء والاجداد، وتتدرّع بثراء الزوج والأولاد، فتبغي على المسلمين، وتصدّ عن سبيل الله ودينه الحنيف، ومن الواضح أنّ امرأة بهذه المنزلة في قومها، وبهذه العزّة في أنفها، يبلغ منها أيّما

مبلغ أن تصوّر في صورة جامع حطب»[٣٠] . وتتعمّق السخرية منها بالآية التالية :

﴿في جيدها حبلٌ من مسد﴾

والمعنى القريب كما قال المفسّرون : «في عنقها حبلٌ من ليف قد فتل فتلاً شديداً ، تُعذّب به يوم القيامة ، قال مجاهد : هو طوق من حديد ، وقال ابن المسيّب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللاّت والعزّىٰ لأنفقنّها في عداوة محمد ، فأعقبها الله حبلاً في جيدها من مسد النار»[٣١] .

ولكنّ الآية تشير إلى معنى مكنى عنه بعيد هو صفة الانقياد الأعمىٰ إلى الأذى والانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين ، وهذا المعنى قد وصف القرآن به المشركين في مواضع أخرى[٣٢] ، والكناية جسدت هذه الصفة بالتعبير عنها بحبل من مسد المرئي الملموس فعله ليترسخ المعنى في نفس المتلقي .

ولاشك في أن السخرية منها قد تجلّت على نحو قوي ، فليس هناك وسيلة من وسائل التصوير تستطيع أن تمسك لامرأة أبي لهب بصورة مثل هذه الصورة الكنائية المتحركة ، المنادية بالخزي والفضيحة .. فها هي ذي قد شدّت رقبتها بحبل من ليف يمسك من طرفه الآخر بحزمة كبيرة من الحطب ، ألقت بها على ظهرها .. فمشت هكذا مقوسة الظهر ، ثقيلة الخُطى ، لاهثة الأنفاس .. تأخذها أعين الناظر من خلف ومن قدام[٣٣] .

وبالنظر في سورة اللهب يتجلى ملحظ فني وجمالي للكنايتين فيها (حمّالة الحطب وفي جيدها حبلٌ من مسد) إذ إن الكنايتين تتناسقان مع الأداء التعبيري للسورة في موضوعها وايحاءاتها ، فالسورة تجعل لعبد العزىٰ زوج أم جميل اسماً على سبيل الكنية (أبو لهب) ، وهي كنية يكسوها لهب ونار ، وهو (سيصلىٰ ناراً ذات لهب) وامرأته حمّالة الحطب ، والحطب وقود النار . وهي ستصلاها وفي عنقها حبلٌ من مسد ، وبذلك يتجلّى «تناسق في اللفظ ، وتناسق في الصورة ، فجهنم هنا نار ذات لهب . يصلاها أبو لهب ! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لايذائه ، والحطب ممّا يوقد به اللهب . وهي تحزم الحطب ، فعذابها في النار ذات اللهب أن تغلّ بحبل من مسد . ليتم الجزاء من جنس العمل ، وتتم الصورة بمحتوياتها : الحطب والحبل . والنار واللهب . يصلى به أبو لهب وامرأته حمّالة الحطب»[٣٤] .

وترتسم في ذهن القارىء أو السامع صورة هذه المرأة وهي في حركة آلية دائبة تحمل الحطب وتضرم النار وتغذّيها بالوقود ليستعر أوارها من دون أن تدري بأن زوجها هو الذي سيصلاها وأنها ستلحق به .

وبالنظر في فواصل سورة اللهب نلحظ التنويع غير المتباعد في الفواصل (تبّ ، كسب ، لهب ، الحطب ، مسد) حيث الروي المتماثل في أربع فواصل في الوزن وحرف الروي وهو (الباء) وجاءت الفاصلة الأخيرة (مسد) بحرف الروي (الدال) ، فهي فاصلة

منفردة[٣٥] ، ولاشك في أنّ «غلبة فواصل (الباء) أتاحت لفاصلة (الدال) مزيداً من البروز[٣٦] . وفي ضوء ذلك فإنّ الفاصلة الأخيرة (مسد) ركّزت الانتباه بانفرادها وانتهاء السورة عندها فحقّقت بذلك نكتة بلاغية من خلال هذا الانفراد والتغيير في ايقاع السورة الكريمة إذ يعمل على إحداث الصدمة للتوقع عن طريق المفاجأة ، وذلك بظهور شيء جديد يثير الاهتمام على نحو مؤكد ، إذ يتولد في نفوسنا أثر الشيء الجديد ، فهو تنويع ومراوحة تؤذن بإثارة اليقظة وتجديد الانتباه[٣٧] عن طريق ايقاع السورة بمجموعها ، ترمي إلى تركيز الانتباه للنهاية المفجعة لكل من أبي لهب فضلاً عن زوجه أمّ جميل .

خاتمة ونتائج

تمخّضت عن البحث نتائج نجملها بما هو آت :

- حاولت هذه الدراسة البلاغية في سورة اللهب أن تجلّي الوظيفة التعبيرية والتصويرية للظواهر البلاغية المتنوعة في نسيج السورة وفاعليتها في الكشف عن دلالاتها . إذ إن هذه الظواهر البلاغية ذوات طاقة فنية وجمالية وهي تحتضن الأفكار والمعاني فتتجلى من خلالها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي ، وما ذلك إلاّ لأن هذه الظواهر هي ليست فنوناً تزينية متكلفة تُراد لذاتها ، بل هي جزء مهم من بناء لها أهدافها في التعبير.
- فعلى صعيد مضامين السورة نهضت الظواهر البلاغية على نحو عميق في توصيل فكرة السخرية من أبي لهب وزوجه أمّ جميل والتهكم بها وتقديمها في صورة ساخرة تؤدي إلى إثارة فكرية ونفسية في المخاطَب ، وهذا هدف من أهداف السورة ، وما السخرية إلاّ لون من ألوان الحرب النفسية التي تهدف إلى تحطيم أعداء الرسول ﷺ والمسلمين روحاً ومعنىً قبل تحطيمهم مادة وصورة ، فضلاً عن تعميق صورة عذابها من جنس فعلها في جهنم جزاء وفاقاً .

- المصادر والمراجع -

- أسباب النزول ، للواحدي ، تح : السيد أحمد صقر دار المعارف بمصر (١٩٧٨) .
- الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي ، ياسين النصير ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٩٣ .
- أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، عبدالحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٨ .
- اعجاز القرآن ، في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ، عبدالكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، مطابع دار الكتاب العربي ، ط ١ ، مصر ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
- الايضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح وتعليق وتنقيح ، د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ١٩٨٩ .
- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تح : السيد أحمد صقر ، ط ٣ ، المدينة المنورة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- تفسير أبي السعود المسمّىٰ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (د. ت) .
- تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، (د. ت) .
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار الجيل ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- تفسير النسفي : أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود ، دار إحياء الكتب العربية - البابي الحلبي - مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه بمصر (د. ت) .
- جامع البيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ط ٢ ، بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الناشر : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١٢ ، بيروت (د. ت) .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ، المطبعة الكبرى الأميرية ، ط ١ ، مصر ١٣١٠ هـ .

- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط ٢، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار الأصيل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، ط ٥، بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جارالله محمود بن عمر الزمخشري، ترتيب وضبط وتصحيح مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، ط ٢، القاهرة، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م.
- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، بهامش تفسير الجلالين، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي (د. ت).
- معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، محمد سعيد إسبر وبلال جنيدي، دار العودة، ط ١، بيروت ١٩٨١.
- المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، للجرجاني: أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني الثقفي، عني بتصحيحه السيد محمد بدرالدين الحلبي، مطبعة السعادة، ط ١، مصر، ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م.

الهوامش

(١) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري: ٣٠/ ٢١٧. وتفسير النسفي: ٣/ ٧٣٤.

(٢) سورة الشعراء، رقم الآية ٢١٤.

(٣) من الآية ٤٦ سورة سبأ.

(٤) أسباب النزول، للواحدي، ص٣٤٤- ٣٤٥. وينظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص٨١٦ بهامش تفسير الجلالين.

(٥) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور: ٣٠/ ٦٠١. وصفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٣/ ٦١٧.

(٦) الكشاف، للزمخشري: ٤/ ٦٥١. وتفسير أبي السعود: ٩/ ٢١١.

(٧) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، عبدالحليم حفني، ص٦٣.

(٨) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص١٢- ١٣.

(٩) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٥- ٦٠٦.

(١٠) الايضاح، للقزويني: ٢/ ٥٩٤.

(١١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٠.

(١٢) أحمد الهاشمي، ص٤١٩.

(١٣) ينظر في وظيفة الاستهلال وبنيته: (الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير، ص٢٢، ٢٥- ٢٦.

(١٤) ياسين النصير في كتابه: الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ص٢٧- ٢٨.

(١٥) معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، محمد سعيد إسبر وبلال جنيدي، (تب)، ص٢٦٩.

(١٦) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٣.

(١٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٥٦٤. وصفوة التفاسير: ٣/ ٦١٨.

(١٨) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠١- ٦٠٢.

(١٩) الايضاح: ٢/ ٤٩٩.

(٢٠) شبه كمال الاتصال: هو كون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى، لوقوعها جواباً عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى فتفصل عنها كما يُفصل الجواب عن السؤال. جواهر البلاغة، ص٢٠٨.

(٢١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٤.

(٢٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٤.

(٢٣) تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٤.

(٢٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣٠/ ٦٠٥. وفي الآية من دلائل النبوة، إذ كانت هذه الآية (سيصلى ناراً ذات لهب) إعلاماً بأنه لا يُسلم وقد مات بعد ذلك كافرا.

(٢٥) واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان بن حرب، وقيل اسمها العوراء، فقيل هو وصف وأنها كانت عوراء وقيل اسمها، وذكر بعضهم: أن اسمها العَوّاء. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٦٤.

(٢٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٦٥.

(٢٧) الكناية: لفظ أُريد به غير معناه الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته. جواهر البلاغة، ص٣٤٩.

(٢٨) تأويل مشكل القرآن، ص١٥٩ – ١٦٠. وينظر: روح المعاني، للآلوسي: ٩/ ٤٨٠.

(٢٩) الكشاف: ٤/ ٦٥١. وينظر: المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، للجرجاني، ص٨.

(٣٠) اسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص١٥٤. وينظر: اعجاز القرآن، عبدالكريم الخطيب (الكتاب الثاني) ص٢٩–٣٠.

(٣١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠/ ٢٤٢. وصفوة التفاسير: ٣/ ٦١٩.

(٣٢) ينظر: سورة الاعراف: ١٧٩. والفرقان: ٤٤.

(٣٣) ينظر: اعجاز القرآن، عبدالكريم الخطيب (الكتاب الثاني)، ص٣٠.

(٣٤) في ظلال القرآن: ٨/ ٦٩٩.

(٣٥) هناك ثلاثة أنواع من الفواصل القرآنية: الاولى (الفواصل المتماثلة: وهي التي تماثلت حروف رويّها. والثانية الفواصل المتقاربة: وهي التي تقاربت حروف رويّها، كتقارب الميم من النون مثلاً. والثالثة (الفواصل المنفردة: وهي نادرة، وهي التي لم تتماثل حروف رويّها ولم تتقارب، كالفاصلة التي ختمت بها سورة اللهب مثلاً. وهذه الفواصل (المنفردة) لا تتجاوز في القرآن (٢٣ فاصلة) كما أحصىٰ ذلك محمد الحسناوي في كتابه (الفاصلة في القرآن) ص١٧٣.

(٣٦) الفاصلة في القرآن، ص٤٢٣.

(٣٧) المصدر نفسه، ص٤٢٣.